

## صورة الصحراء الجزائرية من خلال الرحلة الحجازية لأبي علي الحسن اليوسي (1101-1102هـ/1690-1691م)

### The Algérien désert throught Hidjazean trip of Abu Ali Al-Hassan el Yossi (1101-1102AH/1690- 1691AD)

جامعة غرداية/ الجزائر	تاريخ حديث ومعاصر	بوسليم صالح – أستاذ التعليم العالي (salah_ghar@hotmail.fr)
جامعة غرداية/ الجزائر	تاريخ حديث	جعني زينب – أستاذ محاضر أ (zinab.j47@gmail.com)
DOI :		

الإرسال: 2022/10/25      القبول: 2022/12/16      النشر: 2022/12/22

#### ملخص:

تكتسي الرحلات الحجازية المغربية أهمية بالغة في تدوين جوانب عدّة من تاريخ الجزائر خلال العصر الحديث، خاصة الصحراء الجزائرية، التي كانت ممرا ضروريا للكثير من الرحالة المغاربة في طريقهم الى الحج؛ بحكم أنها كانت منطقة عبور لقوافلهم، ولقد تمكّنت هذه الرحلات من توثيق معلومات غاية في الأهمية عن المنطقة، والتي أصبحت مادة تاريخية وجغرافية لا غنى عنها لكل دارس لها.

يُعالج هذا المقال صورة الصحراء الجزائرية من خلال رحلة أبي علي الحسن اليوسي (1101-1102هـ/1690-1691م)، وذلك بالتعريف بالرحلة وصاحبها، والتعرف على المسالك الصحراوية للجزائر، وإبراز الجوانب الجغرافية والثقافية والتاريخية والاجتماعية والاقتصادية للصحراء الجزائرية.

الكلمات المفتاحية: الرحلة الحجازية؛ الحواضر الصحراوية؛ الجزائر؛ أبوعلي اليوسي؛ الماء.

#### Abstract:

The maghreban Hijazi trips had an important role in depicting the various aspects of life in many areas that the convoys of pilgrims passed through, especially the Algerian desert, which was a necessary passage for many Moroccan travelers on their way to Hajj. These trips were able to document very important information about the region. It became an indispensable scientific material for every student of the desert region, and one of the Moroccan travelers who visited Algeria was the

scholar Al-Yossi during the late 17th century AD. We made it the subject of this study.

This article deals with the image of the Algerian desert through the journey of Al-Yossi, trying to identify the desert paths, and highlighting the geographical, cultural, historical, aspects of the Algerian desert through this trip.

**Keywords:** Hidjazian Trip ; saharean urban ; Algeria; Abu Ali el youssi ; Water

## 1- مقدمة:

عكف العرب والمسلمون عامة، والمغاربة بصفة خاصة على الرحلات العلمية والدينية؛ كوسيلة لطلب العلم أو أداء شعائر الدين، فكانت هذه الرحلات عامل ربط وتواصل بين بلاد المشرق وبلاد المغرب الإسلاميين.

وتُعدّ الرحلة الحجازية من أكثر الرحلات شهرة وأهمية لعدّة اعتبارات، ويأتي في مقدّمها الاعتبارات الدينية، حيث حملت هذه الرحلة معلومات قيّمة ومادة علمية تمّ توظيفها في جوانب مختلفة من الحياة، خاصة في الجانب التاريخي، فهي تُشكّل مصدرا مهما لدراسة التاريخ، إذ كان لها دور في الإحاطة بالمعارف والمعلومات، مثل العادات والتقاليد، وأخبار المدن التي مرّ عليها الرحالة، والاتصال بالسكان والعلماء، حتى تم تشبيهها بالشريط السينمائي الذي يصور منظرا أو يلتقط حدثا (بالحميسي، م، 1981، ص8).

وتُعدّ رحلة أبي علي حسن اليوسي، من أهم هذه الرحلات التي قدّمت لنا وصفاً جغرافياً للمسالك الصحراوية الجزائرية، كما صورت لنا الواقع الاقتصادي والاجتماعي والثقافي للصحراء الجزائرية خلال القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي. وانطلاقاً من ذلك يتبادر إلى ذهن الباحث طرح التساؤل الآتي: كيف صورت لنا رحلة اليوسي الحجازية واقع الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية للصحراء الجزائرية؟.

## 2. التعريف بالرحلة الحجازية:

قبل التعريف بالرحلة الحجازية بصفة خاصة؛ لابد لنا من التعريف بالرحلة عموماً، وهي كما جاء في لسان العرب: "ارتحل البعير رحلة: سار، فمضى، ثم جرى ذلك في المنطق حتى قيل ارتحل القوم عن المكان ارتحالاً. ورحل عن المكان يرحل، وهو راحل من قوم. رحل أي انتقل (ابن منظور، 1994، ص278).

أما أحمد رمضان أحمد؛ فقد عرّفها بقوله: "من يرحل رحلاً ورحيلاً وترحالاً، ورحله من بلده أخرجه منها، وارتحل القوم انتقلوا، والراحلة الناقلة الصالحة لأن تتركب، والرحل مركب للبعير أصغر من القتب، والرحل أيضاً ما يستصعبه المسافر من الأوعية، جمعه رحال. والرحلة بضم الراء الجهة التي يقصدها المسافر ويُقال مكة" (أحمد رمضان، أ، 1985، ص7).

وبخصوص الرحلة الحجازية، فدافعها الأول ديني؛ تهدف إلى تأدية مناسك الحج والعمرة، فالحج ركن من أركان الإسلام وملتقى للحجيج، ومناسبة للتعرف على شعوب العالم الإسلامي، ومجال لتبادل المعارف.

وتُعد الرحلات المغربية إلى الحجاز رافداً من روافد التواصل بين أهل المغرب والمشرق الإسلاميين، لاسيما في الجانب الثقافي، وكانت الرحلات تزخر بعدد من العلماء والأدباء الذين كانوا يشدون الرحال لأداء مناسك الحج (كساس، ص، 2011، ص181). وهي فرصة للاطلاع على الاتجاهات العلمية والفكرية عند علماء المدينة المنورة، والاحتكاك بالعلماء الذين جاءوا من بلاد الشرق الأقصى، مثل علماء الهند والسند، والحصول على الإجازة العلمية (بيومي، م، 2006، ص15)، فكان الحجاج يعودون، وقد أدوا فرضهم، ونهلوا من العلم، وتلقوا إجازات من العلماء الذين التقوا بهم في هذه المراكز العلمية (أحمد رمضان، أ، 1985، ص11)، وبما أنّ الجزائر كانت تشكل ممراً ضرورياً للمغاربة في رحلتهم إلى الحج، سواء في رحلاتهم البحرية أو البرية. وإن كان الطريق البري هو المفضل للكثير من الحجاج خاصة المغاربة، رغم أنّه يستغرق مدة طويلة. فبخصوص المدة التي تستغرقها القافلة فإذا كان متوسط سرعة القافلة يتراوح في الصحراء ما بين ثلاثة وأربعة كيلومترات

في الساعة الواحدة، وتقطع القافلة ما بين خمسة وثلاثين وأربعين كيلومترا في اليوم؛ أي بمعدل عشر ساعات في اليوم، وإذا أراد رجال القافلة زيادة السرعة، فهذا يعني أنهم كانوا يستطيعون أن يقطعوا خمسة كيلومترات في الساعة، وبالتالي تقطع القافلة خمسين كيلومترا في اليوم، وهناك عدّة مناطق يبيت ويستريح فيها ركب الحجيج المغربي. وتجدر الإشارة إلى أنّ المغاربة يسلكون ثلاثة طرق برية، فمنهم من ينطلق من فاس، ويعرف بالركب الفاسي، وكان يسلك أحيانا الطريق الشمالية، وتتخللها جبال وتلال من فاس إلى تلمسان والجزائر وقسنطينة وتونس (ماكمان، م، 2014، ص147). وأحيانا طريق الواحات، وكثيرا ما يلتقي بالركب السجلماسي؛ كما سنرى في الرحلة التي بين أيدينا.

وهناك من ينطلق من سجلماسة، وكان يُعرف بالركب السجلماسي، يخرج من سجلماسة إلى تافيلالت، ومن أهم محطاته: بشار، بوسمغون، ربا، الغسول، وادي المغيلي، شعبة الملح، عين ماضي، تاجموت، والزاب (برشان، م، 2013، ص195) أو طريق الواحات الواقعة بالجنوب الشرقي للمغرب كفجيج، مروراً بالواحات الجنوب الجزائري؛ كتوات وورقلة، والزاب (ماكمان، م، 2014، ص146). وهناك من انطلق من مراكش، وكان يُعرف بالركب المراكشي (الغاشي، م، 2015، ص351) الذي فقد مكانته التي كان يحظى بها في فترة الحكم السعودي عندما كانت مراكش عاصمة الدولة السعودية (المنوني، م، 1953، ص9).

### 3. التعريف بصاحب الرحلة:

هو شيخ من مشايخ المغرب؛ أبو علي الحسن بن مسعود بن أحمد بن علي بن يوسف بن داوود بن بدر البوحديوي اليُوسي. ولد سنة 1040هـ/1631م وسط قبيلة آيت يوسي ناحية الأطلس الشرقي (الغاشي، م، 2015، ص180)، نشأ في بيئة متواضعة، حفظ القرآن في سجلماسة، وقد عرف بشغفه للعلم، فتنقل بين مختلف المدن المغربية، أخذ عن الشيخ محمد بن ناصر الدرعي، وعن عبد الملك التاجموعي، وعبد القادر الفاسي (الفاسي، ع، 1979، ص20)، عين أستاذاً في تارودانت، ثم غادر إلى درعة، وبعدها توجه إلى الزاوية الدلانية، صاهر من أصحابها ثم هاجر إلى فاس بعد تخريب الزاوية من قبل المولى الرشيد، ثم إلى تطوان، لكنّه أرغم على الرحيل إلى مراكش، ليعود إلى الزاوية الدلانية ما بين 1095هـ/1683م - 1100هـ/1688م. ثم إلى مكناسة، ثم اتجه إلى العرائش مع تلميذه ابن

زاكور، ثم عاد إلى فاس لكنه غادرها باتجاه الحجاز سنة 1101هـ/1690م ليعود سنة 1102هـ/1691م، والتحق بأسرته في تمزريت، وأقام بها وتوفي في نفس السنة. (الغاشي، م، 2015، ص 181).

وللشيخ المذكور عدة تأليف، نذكر منها: "أدعية ورسائل"، "ديوان اليوسي"، "زهر الأكم في الأمثال والحكم"، "حاشية على مختصر السنوسي"، "نيل الأماني في شرح التهاني"، و "الكوكب الساطع في شرح الجوامع"، و "سؤال وجواب في نعيم الجنة"، وغيرها من المؤلفات (بعلي، ح، 2018، ص153)، فقد كان شيخا من شيوخ العلم، قال عنه أبو سالم العياشي مادحا:

مَنْ فَاتَهُ الْحَسَنَ الْبَصْرِي يَصْحَبُهُ  
فَلْيَصْحَبِ الْحَسَنَ الْيُوسِي يَكْفِيهِ.

(اليوسي، 1982، ص31)

#### 4.التعريف برحلته:

كان يأمل الحسن اليوسي في أداء فريضة الحج فأداها عام 1101هـ/1690م برفقة وفد رسمي مبعوث من طرف المولى إسماعيل، يضم الأمير المعتصم بن المولى إسماعيل . وقد اتخذت الرحلة طريق البر، انطلقت من فاس يوم السبت 14 جمادى الثانية 1101هـ/ 24 مارس 1690م إلى 25 شوال 1102هـ/ 21 جويلية 1691م (اليوسي، 2018، ص25)، ووصل إلى تآمزريت يوم الأحد الثامن والعشرين من شوال 1102هـ/1691م (التازي، ع.2005، ص237) ، وكان يأمل في المكوث والبقاء بجوار الحرمين الشريفين، نظرا لتقدمه في السن ، ولكن من خلال رحلته تكشف له مساوئ المشرق، فارتأى العودة إلى المغرب بعد أن أنهى مناسكه (ماكان، م، 2014، ص210).

ومن خلال رحلته الموجودة في ثلاث نسخ مخطوطة في الخزانة العامة بالرباط تحت رقم 1418، التي تتكون من 105 ورقات، وهناك رحلة مخطوطة في المكتبة الوطنية بالجزائر تحت رقم: 1896 (نواب، 2008، ص75) وهي التي حُققت من قبل أحمد الباهي واعتمدنا عليها ، وهي التي أملاها اليوسي على ابنه محمد العياشي بن حسن اليوسي (ت. 1119هـ/1708م) الذي قام بكتابتها، إلا أنه لم يكن متمكنا من الكتابة مثل أبيه ، فجاءت

مختصرة لكنها مفيدة، وأسلوبه فيها متين، وملاحظاته دقيقة (المدغري، 1989، ص119) ، حيث احتوت على مواضيع هامة في الثقافة والعادات والسلوك، ووصف طرق القوافل، وحالتها الأمنية، ولم يستطع اليُوسي مراجعة رحلته التي أملاها على ابنه حيث توفي بعد عودته من الحج (ماكمان، م، 2014، ص212).

وقد اختلفت رحلة اليُوسي عن أغلب الرحلات، فكان هدفه منها زيارة بيت الله وأداء فريضة الحج، لا التحصيل العلمي أو الحصول على إجازة، ورغم ذلك لم يغب عن الرحلة الحديث عن الجانب العلمي، ورصد مظاهر الاتصال الثقافي بين المغرب وغيره، إلا أن ذلك يبدو قليلا، إذا ما قورن بما تعرفه رحلات المعاصرين لليوسي من الراحلين إلى المشرق، من أمثال أبي سالم العياشي، وأبي العباس الهشتوكي، وأحمد بن ناصر وغيرهم.

5. مسالك رحلته في الصحراء الجزائرية:

أما بخصوص مسار رحلته؛ فقد انطلق اليُوسي مع الركب الفاسي، إذ حطّ على الأراضي الجزائرية وعانى كثيرا في الحصول على المياه، نظرا لقلتها وطعمها غير العذب، وبوصوله إلى جبل عنتر المقابل للمشرية، يذكر أن الركب الذي كان فيه وجد عينا عذبة أين تمكنوا من الحصول على ماءها (اليُوسي، 2018، ص73) ، ثم وصلوا إلى المشرية التي كانت خالية من السكان، وكانت تسمى عين الحمير لكثرة الحمر الوحشية بها، ثم سار الركب بعد ذلك إلى أن وصل إلى المشرية التي تعرف بالنعامة اليوم، وهي آخر أراضي الظهر، وأول عمارة صحراوية صادفوها في مسارهم بالجنوب الغربي، وقد ذكر اليُوسي أنهم تزودوا منها بالماء العذب، إلا أنّ أهلها لم يستقبلوهم استقبالا لائقا ولم يتفاعلوا ويتواصلوا مع ركب الحجيج، إذ قال: "وهم أحياء كأموات، ما رأينا منهم خيرا ولا شرا، ولا نفعا وضرا" (اليُوسي، 2018، ص74). ومن المشرية سار الركب إلى واد الغاسول الذي يقع جنوب البيض، ثم ساروا إلى منطقة النخيل قبل أن يتوجهوا شرقا ويلتقوا بالركب السجلماسي؛ بقيادة مولاي عمر بن هاشم، أين تعرضوا لبرد شديد وريح عاتية (اليُوسي، 2018، ص74) مما يعطي انطبعا عن طبيعة مناخ المنطقة وبردها الشديد، وقد عبر الصاحي الرحلة عن حالة البرد الشديد بعبارة: "ما رأيت مثله في جبل جيان في فصل حيان" (اليُوسي، 2018، ص75).

وبعد معاناة مع البرد الشديد والرياح القوية وصل الركب إلى خنق الملح (الخنق)؛ وهي التابعة لعين ماضي بالأغواط حاليا، إذ لم يتمكنوا من نصب خيمهم إلا بعد مشقة كبيرة، ونزلوا في حي بها يطلق عليه اسم العمور، كانت تسكنه قبائل العمور وهم من البدو. وقد وصف هذه القبائل بأنّ لهم أغناما كثيرة جعلتهم يستفيدون من سمها ولبنها، وفي المقابل كانوا بحاجة إلى اللباس والقلائد، وبالخنق أيضا وجدوا حيا آخر يسكنه أولاد يعقوب من بني هلال، إلا أنّ المؤلف توجّس منهم خيفة، حيث انتقد أعمال النهب التي يقومون بها، إذ كاد الركب يتعرض للسرقة، لكنهم لم يستطيعوا نهبهم، لأنهم أدركوا استحالة ذلك مع توافد أفراد ركب الحج (اليوسي، 2018، ص75).

بعد ذلك وصلوا للطريفية، التي تقع قبل عين ماضي بخمسة عشر كيلو مترا، لكنّها لا تتوفر على الماء، ومنها وصلوا إلى عين ماضي في يوم الأربعاء 16 رجب 1101هـ/ 25 أفريل 1690م؛ أين أشاد اليوسي بكرم أهلها، واستقبالهم لركب الحجيج بحفاوة، واهتمامهم وتقديرهم للعلم وأهله، رغم أننا في موضع آخر، نجد أنّ اليوسي يناقض نفسه فيقول عنهم: "مع ثقل مفرد وجفاء في طبائعهم وبلادة وشح وبخل" (اليوسي، 2018، ص76).

ثم توجه الركب بعدها إلى قرية تجمت (ينظر التعليق رقم1)، حيث وباتوا فيها وكان ماؤها مالحا. وفي الغد من ذلك واصل ركب الحجيج طريقه إلى أن وصل إلى الأغواط (ينظر: التعليق رقم 2)، التي وجدوا بها ماء باردا عذبا (اليوسي، 2018، ص76)، ومنها وصلوا إلى العسفية (العسافية)، والتي تبعد بأربعة عشر كيلومترا شرق الأغواط، وباتوا بواد القصب الذي كان ماؤه حلو. وكان ركب الحجيج لما يصلون إلى أي بلدة يبيتون فيها ليرتاحوا وليتواصلوا مع أهل البلدة، خاصة في الأمور العلمية، وزيارة أضرحة الأولياء. ولما وصلوا إلى المكيد (اليوسي، 2018، ص77) التي تسمى حاليا المقيد، وجدوا أنّ سكانها كانوا من قبيلة أولاد نايل الهلالية (ينظر: التعليق رقم 3). وفي الظهر وصلوا إلى قرية دمد (ينظر التعليق رقم: 4)، وهنا نجد اليوسي متذمرا من سكانها، حيث قال عنهم: "وأهلها يسرقون النوم من الأجفان إن كان لهم بإمكان" (اليوسي، 2018، ص77). إلى أن وصلوا إلى قرية سيدي خالد بعد أن مرّوا على وادي عبد المجيد، أين حملوا المياه معهم ثم واد سيدي خالد، وقد عانوا فيها من العطش والخوف والأرض الوعرة، لكن وفرة تساقط الأمطار وتكوّن الشعاب

والأودية أغناهم عن المياه التي حملوها. وبعد وصولهم إلى واد البساس وباتوا قبالة التوأميات (التوميات)، ثم رحلوا بعد أن عانوا من حرارتها الشديدة ما جعله ينظم أبياتا شعرية بقول فيها:

وَعَسَى أَنْ يَكُونَ اللُّطْفُ مِنَ اللِّهِّ      هـ وَلُطْفُ الإِلهِ أَمْرٌ خَفِي

لو نضيف الأمور للعبد فاللِّهِّ      هـ لَطِيفٌ بَعْدَهُ وَخَفِي (اليوسي، 2018، ص78)

ورغم أنه كان يذكر معاناة الطريق والعطش والحر، لكنه كان دائم الحمد لله (اليوسي، 2018، ص79)

وفي قرية سيدي خالد التي تبعد بحوالي خمسة وثمانين كيلو مترا جنوب غرب بسكرة، جرت بينه وبين سكانها مناقشات دينية. (اليوسي، 2018، ص80)

وصلت ركب الحجيج بعدها إلى قبيلة الدغرا ضحى ونزلوا في غابة ابن علوش، وهنا ذكر لنا اليوسي واقعة تروي أن امرأة يقال لها أم النون بنت بوعكازة، كان ابنها حاكما على قومه اسمه الكدوم حكم بعد وفاة جدّه، وكانت هي أيضا حاكمة قومها، وقد عزمت على الذهاب إلى الحج معهم، فحضرت إلى الركب بالطبول والمزاهر وبخيلها ورماتها. وَنَعَتَ اليوسي قومها بأنهم أقل عقلاً وأمانَةً وتمييزاً، لأنهم ولوا امرأة عليهم. (اليوسي، 2018، ص81)

وفي الغد رحل اليوسي وركب الحج المرافق له إلى إقليم الزاب، وباتوا في قرية أمليلية (مليلي) التي تقع 25 كم جنوب غرب بسكرة على واد الجدي، والتي ذكرها العياشي باسم أمليلي (العياشي، 2006، ص524) وذكر أن ماءها مالح.

وفي يوم السبت 26 رجب /04 ماي 1690 م، وصلوا إلى مدينة بسكرة وهم في غاية التعب، وذكر أنّها بلدة كثيرة النخيل، إلا أنّ ماءها مالح (اليوسي، 2018، ص82). وقد أصابها الاندثار والخراب، وتبعد عن تونس بمسيرة أربعة أيام، وذكر أنه لم يروا فيها من يقرأ ولا يقرئ ولا من يُضَيِّف ولا يقري، وهنا ذكر المثل القائل "تسمع بالمُعَيدي خير من أن تراه". وفيها مسجد عظيم إلا أنه خال من المصلين وطلاب العلم، وتتوفر على سوق كبير يتوفر على أغلب ما يحتاجه الحجاج. وبعد إقامتهم يوما في بسكرة رحلوا يوم الاثنين

28 رجب 1101هـ/6 ماي 1690، لكن نزلت أمطار غزيرة يوم رحيلهم، ولأنّ الأرض سبخة صارت مثل الصابون، فعجزت الإبل عن المسير في الوحل (اليوسي، 2018، ص83).

ثم ساروا ونزلوا على وادي قرية أم الهنا وأقاموا بها ، وفي الغد مروا على مقام سيدي عقبة ، والذي يقع مسافة ستة عشر كيلومترا جنوب شرق بسكرة ، وقد أسهب اليوسي في ذكر تفاصيل شخصية عقبة بن نافع (ينظر التعليق رقم 5) لابنه لما سأله عنه، ومنها أن عقبة فتح إفريقية وبني القيروان ، ووصل إلى المغرب بواد درعة الذي يصب في المحيط الأطلسي.

ثم باتوا في منطقة الحكف (الحقف) أين رأوا هلال شعبان ليلة الأربعاء 08 ماي 1690 م ، وهي لا تتوفر على الماء (اليوسي، 2018، ص84) ، ثم ساروا ووصلوا إلى عمارات، يقال لها زرايب زريبة الوادي، ثم باتوا بزريبة حامد ، التي كان ماؤها طيبا فحملوا معهم المياه ، ثم باتوا بشعبة يقال لها جارش ، وهي أيضا تفتقر إلى الماء، وتبعد خمسة عشر كيلومترا غرب نقرين. (اليوسي، 2018، ص85).

وهذا فإنّ مسلك رحلة اليوسي من المشرية إلى الغاسول إلى الأغواط، ثم إلى الزاب؛ و وصوله إلى بسكرة، ثم سيدي عقبة (تهودة)، ثم إلى الزرايب زريبة الوادي، ثم زريبة حامد.

## 6. حواضر الصحراء الجزائرية من خلال رحلة اليوسي:

سلك اليوسي كغيره رحالة النصف الثاني من القرن 11هـ/17م الطريق البري عن طريق الصحراء الجزائرية، وتحتوي الرحلة خلال مرورها بالجزائر ذهابا وإيابا على العديد من الأحداث التي وقعت لليوسي خلالها، ولو أنّ أغلبها صبّ في ذكر الأحوال الطبيعية ، وسنحاول استخراج أهم المعطيات التي استنتجناها من رحلة اليوسي .

## 1.6 جغرافيا الصحراء الجزائرية من خلال الرحلة:

اهتم اليُوسي بالجانب الجغرافي في كل مراحل رحلته، فكانت بمثابة خرائط جغرافية تساعد الإنسان على معرفة المناطق، فهو يعرف لنا الأماكن بذكر كل منطقة وخصائصها، حيث يصف لنا المسالك، فرحلته قد توفرت على معلومات جغرافية هامة، خاصة لما ذكر قساوة المناخ، وتسجيل الملامح التضاريسية المختلفة من جبال وأودية؛ إذ ذكر العديد من الأودية منها واد الغاسول، وواد مزّي، وواد عبد المجيد أحد روافد واد الجدي (الناصري، 2011، ص715)، وواد سيدي خالد، وغابات منها غابة الدغرا، وغابة بن علوش وهي بعد قرية سيدي خالد، مصورا لنا الجغرافية الوعرة للمناطق الصحراوية، مثل الأرض الخشنة الصلبة قبل الدخول لواد سيدي خالد (اليُوسي، 2018، ص78).

إنّ طبيعة المنطقة الصحراوية وقلة المياه فيها ، دفعت أغلب كتاب الرحلات للحديث عن ذكر قلة المياه، ومنهم فالْيُوسي كان كلما مر على موضع إلا وتحدث عن عنصر الماء، فأحصى أغلب المواقع التي كانت متزودة بعيون أو آبار أو نزول أمطار، وعن طعامها سواء كانت عذبة أو مالحة ومن ذلك ذكره لعين في جبل عنتر المشرف على المشرية ، وعين في واد الغاسول التي كان ماؤها عذبا، وكذا في عين ماضي والعسافية والأغواط . وكذا مروره على العكيلة الحمراء حيث تتجمع المياه على السطح ،وقد كانت مياهها مالحة، وكذا مياه بسكرة المالحة. (اليُوسي، 2018، ص82)

وقد كانت لوازم استخراج المياه من حبال ودلاء ضرورية للحجيج للاستفادة من مياه الآبار، إذ يتزوّدون بمائها لعدّة أيام، وأحيانا يتخلون عنها إذا ما كانت هناك أمطار وعيون أخرى، مثل تزوّدهم بالمياه لمدة يومين من وادي عبد المجيد، لكنهم سرعان ما تخلوا عنه عند دخولهم واد سيدي خالد، حيث وجدوا الأمطار (اليُوسي، 2018، ص78) ومع قساوة المناخ الصحراوي إلّا أنّ طريق العودة كان خصبا، إذ أنهم لم يستقوا ماء من بسكرة إلى جبل عنتر وسط الظهرا، وذلك بفضل نزول الأمطار وكثرة الغدران (اليُوسي، 2018، ص188).

## 2.6 الحياة الدينية والثقافية من خلال رحلة اليوسي:

رغم أن رحلة اليوسي لم تذكر العلماء الذين التقى بهم في حواضر الصحراء الجزائرية، على عكس الرحلات المغربية التي تطرقت إلى أسماء الفقهاء والعلماء، ومع عدم اهتمام اليوسي بذكر الجانب الثقافي خلال مروره على القرى والمدن الصحراوية الجزائرية، إلا أنه تطرق لبعض الجوانب والمواقف العلمية في الصحراء الجزائرية على قلتها، والتي نوجزها فيما يأتي:

ذكره لأهل عين ماضي، وأن جُلهم من طلبة العلم، وهو ما ذكره أغلب الرحالة المغاربة، وما أكده اليوسي في رحلته، حيث قال: "... وأكثرهم طلبة يقرأون القرآن و يرغبون في ملاقة أهل الصلاح و يسألون عن مسائل في القرآن و التجويد و التفخيم و الترقيق و كيفية ذلك". (اليوسي، 2018، ص76)

ما جرى بينه وبين أهل قرية سيدي خالد من مناقشات. إذ سأله أهلها هل النبي خالد نبي مرسل أو نبي فقط؟ لكن اليوسي لم تكن له الإجابة فقال: " لاعلم لنا به" (اليوسي، 2018، ص80) وبعد ذهابه إلى مصر اطلع على كتاب ذكر فيه مؤلفه النبي خالد فقال:

شَهِدْتُ عَلَى أَحْمَدَ أَنَّهُ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ بَارِي النَّسَمِ

فَلَوْ مَدَّ عَمْرِي إِلَى عُمَرِ لَكُنْتُ وَزيراً لَوْ وَابنِ عَمِّ

ويذكر أن مدفنه كان بإفريقية، لكن الروايات تذكر أن مدفن النبي خالد بن سنان العبيسي والذي بُعث بين الرسول عيسى ومحمد عليهما السلام، وقبره في بلاد الزاب ببسكرة الذي أصبح من أهم المزارات (الزباني، أ، 1991، ص150).

إنّ هذه الواقعة تُظهر الفضول العلي لصاحب الرحلة، إذ أنّ سؤال أهل قرية سيدي خالد عن النبي خالد، دفعه للاطلاع على الكتب خلال زيارته لمصر.

وفيما يخص الفتوى، فقد قام بإعطاء أحكام دينية، والاستشهاد بقول الرسول عليه الصلاة والسلام في مسألة تولي المرأة الحكم في الإسلام (اليوسي، 2018، ص81).

أما عن مدينة بسكرة فقد ذكر أنّ بها مسجدا عظيما ولكنه خال من طلاب العلم، فلم يجد بها من بينهم من يقرأ ولا يرى، ولا من يُضيف (اليوسي، 2018، ص83).

وفيما يخص الفكر الصوفي للمؤلف؛ فهو من تلامذة محمد بن الناصر الدرعي (ت. 1085هـ/1676م)، والذي أخذ عنه الطريقة الناصرية، ورغم أنّ اليوسي كان دائم التنقل لأولياء الله الصالحين هو تهنئة العياشي له خلال عودته من زيارة ضريح المولى عبد السلام بن مشيش في المغرب، حيث جاء فيها: "ونشم منكم روائح التعريف بحضرة الله، إذ لانشك أنكم لا تنقلبون من حضرة أولئك المشايخ إلا بملء الحقائق من تحف المواهب" (ماكان، م، 2014، ص213). لكنّ اليوسي لم يورد لنا خلال تنقلاته وزياراته للأضرحة والأولياء ما شاهده، إذا ما استثنينا ذكره لزيارة مقام عقبة بن نافع، رغم ذكره مبيته بتاجموت وعين ماضي، فالأكيد أنه زار أولياءها وأضرحتها.

وأشار إلى انتساب أسامي بعض المدن لشخصيات دينية، منها قرية سيدي خالد، وسيدي عقبة، وكيف أنّ أهل المنطقة قد تعلقوا بهذه الشخصيات الدينية، بل حتى الزوار من ركب الحجيج الذين كانوا يقومون بزيارة الأضرحة والمزارات، ومنها قبر النبي خالد ومقام سيدي عقبة بن نافع.

### 3.6 الجانب التاريخي:

زوّدتنا رحلة اليوسي بمعلومات تاريخية؛ منها إسهاب اليوسي في ذكر تفاصيل شخصية عقبة بن نافع لابنه لما سأله عنه، ومنها أنّ عقبة فتح إفريقية وبنى القيروان، ووصل إلى المغرب بواد درعة الذي يصب في المحيط الأطلسي (اليوسي، 2018، ص84). ووجود أحد عمال المولى إسماعيل (ينظر التعليق رقم: 6) بعين ماضي سنة 1102هـ/1691م (اليوسي، 2018، ص188). لكنه في الحديث عن بسكرة ذكر لنا المؤلف معطيات خاطئة، منها أنّ مدينة بسكرة هي ضمن عمالة تونس (اليوسي، 2018، ص82).

#### 4.5 الحياة الاجتماعية في رحلة اليوسي:

وصف اليوسي بعض القبائل، وانتقد ما تقوم به من نهب للمايرين بها، كما حدث عند مروره ومن معه بأولاد يعقوب، قبل مرحلة من عين ماضي، حيث تعرضوا للنهب (اليوسي، 2018، ص75). ووصف لنا سكان المشربية إذ قال هم كالأموات ما رأينا منهم خيرا ولا شرا ولا نفعا ولا ضرا (اليوسي، 2018، ص74)، وكذا في حديثه عن أهل منطقة المرأة الذي يرجح أنهم نفس عرب أولاد نصر بن بوعكاز، والذي ذكر العياشي أن الركب الذي كان قبلهم حذرهم من غاراتهم (العياشي، 2006، ص539). بحكم أنّ المرأة التي ذكرها اليوسي هي أم التّون بنت بوعكازة (اليوسي، 2018، ص81)، إذ أبدى تخوفه من قومها حيث يقول: "ولا يلقاك أحد منهم إلا وترى الخيانة في عينيه، وإياك أن تغتر بنفسك في هذه البلاد كما كنت في بلادك تعتاد، فلا تظن فيهم إلا شرورا، ولا تزداد منهم إلا نفورا" (اليوسي، 2018، ص81).

اهتم اليوسي بذكر أنساب بعض القبائل التي سكنت المناطق التي مرّ بها، كقبائل لعمور، وأولاد نايل وأولاد يعقوب، كما ركّز اليوسي على مسألة الشرف، ومنها ذكره أنّ أهل عين ماضي هم من الأشراف الذين ينتسبون لآل البيت. (اليوسي، 2018، ص188).

كما ذكر لنا بعض اللهجات، وهنا يتّضح لنا اختلاط الحجيج المغاربة مع سكان المناطق الجزائرية، وذلك حين مرّ على قبيلة أولاد نايل في المكيد، حيث سأله رجل: "أهذا شاوك؟"، فلم يفهم اليوسي، فشرحوا له إن كان قد حج من قبل، أم هذا شاوك الأول، فأجاب اليوسي: "نعم هذا شاوي". (اليوسي، 2018، ص77).

ولم يغفل اليوسي أن رصّد في رحلته بعض العادات الاجتماعية من خلال تسجيل مشاهداته لاحتفال الجزائريين بالحجيج العازمين على زيارة بيت الله الحرام، خاصة إن كانوا من عليّة القوم، ومنها ذكره لتوديع القوم لأمّ النون بنت بوعكازة بالطبل، وبهذا نجد أنّ عددا من سكان المناطق الصحراوية كانوا ينتظرون ركب الحجيج للذهاب معهم إلى الحج. ولم يكن الاحتفاء بالحجيج الجزائريين فحسب، بل تعداه إلى استقبال ركب الحجيج

المغربي، كسكان عين ماضي الذين استقبلوا ركب الحجيج المغربي بكل حفاوة وسرور. وقد كان الحجاج المغاربة ينصبون خيامهم إلى جانب سكان المناطق ويبيتون معهم.

ولكن اليُوسي؛ لم يصور لنا طريقة الاحتفاء بمناسبة عيد الفطر، عندما تحدّث عن رؤيتهم لهلال شوال في المكيد، وذلك خلال رحلة الإياب (اليُوسي، 2018، ص188)

كما صوّر لنا اليُوسي المدن الجزائرية التي مرّ بها، وإن لم تزودنا الرحلة بذكر العمارات الصحراوية الجزائرية بشكل كبير فجاءت رحلته مقتضبة، حيث يذكر العمارة دون تفاصيل، إلا أنه أشار كغيره من الرحالة المغاربة إلى مسجد بسكرة ومقام سيدي عقبة.

كما سجل اليُوسي انطباعاته الشخصية، ومنها ذكره في طريق رجوعه من الحج حين مشاهدته لجمال نساء عين ماضي حيث تغزل بهنّ قائلا: "جمال نساءها مما لا يكاد يوجد في غيرها". (اليُوسي، 2018، ص188)

## 5.5 الحياة الاقتصادية في رحلة اليُوسي:

قدّم لنا اليُوسي بعض المعطيات الاقتصادية؛ حين تطرق إلى الحديث عن سوق بسكرة الشاسع، وكيف أنه يحوي على كل ما يحتاجه الحجيج، كما ذكر ما تتوفر عليه قبائل العمور في منطقة الخنق من غنم وسمن ولبن وأنّ أهلها كانوا يحتاجون الثياب والقلائد، ويبدو أنه كان هناك سوق كبير تتم فيه مقايضة بين السكان وركب الحجيج.

## 7. خاتمة:

من خلال ما تقدّم، يمكن القول:

- تُعدُّ رحلة اليُوسي من الرحلات الحجازية الواضحة والمميّزة؛ بما تحمله من صور نشاط العالم أبي علي اليُوسي في آخر مراحل حياته، فتنقل لنا أطوار رحلته وظروفها ووقائعها ووصف مراحلها، وما مثلته من ملامح الاتصال بين المغرب والجزائر خاصة.

- تندرج رحلة اليوسي ضمن الرحلات الحجازية، وقد احتلت مكانة هامة، وذلك لاحتوائها على مشاهدات وانطباعات الرحالة، وقدّمت صورة حية للأماكن التي زارها.

- الرحلة مصدر مهم، فهي صورة حقيقية رسمها الرحالة عن أوضاع الصحراء الجزائرية في جميع الجوانب، بالإضافة إلى كونها وصفا للمناطق والمسالك، فقد كانت عنصرا من عناصر التزوّد بالعلوم والمعارف، من خلال ما زوّدتنا به من معطيات في مختلف الجوانب عن الصحراء الجزائرية، وذلك من خلال التطرق لطبيعة المناخ وأماكن التزوّد بالمياه، واستقصاء العادات، واحتضان قوافل الحجيج ومرافقتها من ثمّ التعايش بين سكان الصحراء الجزائرية وركب الحجيج المغربي.

- احتوت رحلة اليوسي على تفاصيل مهمة عايشها في طريقه إلى الحجاز، فكانت وعاء لحفظ النصوص العارضة من أجوبة وفتاوى، وقصائد شعرية، كما أورد اليوسي أغلب مراحل الذهاب إلى الحج، لكنه لم يتطرق إلى مراحل الإياب بشكل كبير فجاءت رحلته ملخصة.

- أسهمت كُتب الرحلات المغربية بشكل كبير في كتابة تاريخ الجزائر الحديث بصفة عامة والصحراء بشكل خاص، فلا يمكن للمؤرخ والجغرافي والأديب الاستغناء عنها، وقد تميّزت بكثرة عددها مقارنة بالرحلات الجزائرية، مستفيدة من الرحلات إلى الحج والمرور على الأراضي الجزائرية.

- ساهم ركب الحاج المغربي في توطيد العلاقات بين الشعوب المغربية، وفي ازدهار الحواضر الصحراوية الجزائرية التي تحولت إلى مراكز إشعاع ديني وثقافي، وأسواق كبرى؛ الأمر الذي أذى انتعاش الحياة الاقتصادية والثقافية.

- اختلفت مسالك وطرق الحج وتعدّدت وكان الطريق البري الصحراوي أكثر انتشارا للرحلات الحجازية المغربية، أين كانت الصحراء الجزائرية منطقة عبورها.

- أسهمت رحلة أبو علي اليُوسي الحجازية في التعرّف على جوانب مهمة في مجال الجغرافيا والثقافة والاقتصاد للصحراء الجزائرية، فقد استطاع تقديم معلومات مختلفة؛ بالرغم من أنّها جاءت مقتضبة.

#### - التعليقات والشروح:

1- تاجموت: تقع أربعين كيلومترا شمال غرب الأغواط ، بالقرب من مجرى وادي مزي ، وقد تمّ بناء قصرها فوق هضبة صخرية سنة 1077هـ/1666م من طرف قبيلة بني يوسف ، وحسب الروايات أنّ تسميته مشتقة من "تاج الموت" الذي كانت الملكة تضعه على رأسها كلما حكمت على المجرم بالإعدام. (حملاوي، ع، 2002، ص14)

2- الأغواط: هي جمع غوطة؛ أي المطمئن من الأرض ومجتمع النبات والماء، وهي الدور التي تحيط بها البساتين، وهي مدينة قديمة. ويرجع تأسيسها إلى منتصف القرن 4هـ/10م. (بالحميسي، م، 1981، ص107)

3- تُنسب إلى محمد بن عبد الله الخرشفي ، ولد في الساقية الحمراء، ذهب إلى مليانة طالبا للعلم، وتلمذ على يد الشيخ أحمد بن يوسف الملياني ، وبقي عنده بضع سنوات ، وكان خلالها تلميذا مثاليا .وبعد أن امتحنه شيخه، نال إعجابه، ودعا له بالبركة والعلم والحماية وكثرة الولد(الشافعي، د، 2020، ص848) ، ومن ثم لقب محمد بن عبد الله بلقب نايل من اسم فاعل نال ينال (المحفوظي، ع، 2002، ص10)لأنه نال بركة الشيخ ودعوته. وبعد ذلك أمره الملياني بالتوجّه إلى الجنوب، فامتثل لأمره ووصل إلى عين الريش ، وذلك مع بداية القرن 16م (الشافعي، د، 2020، ص848).

4- رجّح المصعبي أنّها قرية بناوحي الجلفة، والتي تبعد عن الجزائر العاصمة اليوم 300كم. (المصعبي، إ، 2007، ص75).

5- عقبة بن نافع الفهري ، ويرجع نسبه إلى قريش ، ولد في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام حوالي 8هـ/14م، أرسله ابن خالته عمرو بن العاص حين كان واليا على مصر لفتح غدامس ، ففتحها سنة 42هـ/662م ، وولي إفريقية وبني القيروان ، كما غزا المغرب ووصل إلى السوس ، إلا أنّ نهايته كانت على يد كسيلة الأوربي الأمازيغي الذي غدر به وقتله سنة 63هـ/682م في معركة تهودا.(حاجيات، ع، 1986، ص38).

6- بوع يوم 16 ذي الحجة 1082هـ/14 أبريل 1672م، وهو يبلغ من العمر 27 عاما، توفي المولى إسماعيل في 22 مارس سنة 1727م، وخلفه ابنه أحمد الذهبي بن إسماعيل، ودفن بضريح الشيخ المجذوب بمكناس بعد أن عمّر 83 عاما. قضى 55 منها سلطاناً على البلاد. (البستاني، ب، 1969، ص 29).

### قائمة المراجع:

- ابن منظور جمال الدين، (د.ت)، لسان العرب، مج 11، دار صادر، بيروت.
- أحمد رمضان أحمد، (1985)، الرحلة والرحالة المسلمون، دار البيان للطباعة والنشر، المملكة العربية السعودية.
- بالحيمسي مولاي، (1981)، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، ط 1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.
- برشان محمد، (2013)، أثر ركب الحج في بناء حضارة المجتمع الصحراوي - الجنوب الغربي الجزائري نموذجاً، في مجلة الخلدونية، مج 06، العدد 01، جامعة تيارت، الجزائر، ص ص 195-205.
- البستاني بطرس، (1969)، المنجد في الأعلام، دار المشرق، لبنان.
- بعلي حفناوي، (2018)، الرحلات الحجازية المغاربية: المغاربة الأعلام في البلد الحرام، اليازوري العلمية للنشر، الأردن.
- بيومي محمد علي فهيم، (2006)، المغاربة في المدينة المنورة إبان القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي، دار القاهرة، مصر.
- التازي عبد الهادي، (2005)، رحلة الرحلات مكة في مائة رحلة مغربية ورحلة، تحقيق: عباس صالح طاشكندي، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، مكة المكرمة، المملكة العربية السعودية.

- حاجيات عبد الحميد،(1986) ، حول شخصية عقبة بن نافع الفهري، في مجلة الدراسات التاريخية، مج01، العدد 01، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، ص ص35-41.
- حملاوي علي، (2002)، من العمارة التقليدية بالجزائر: قصر تاجموت، في مجلة الفيصل، السنة 26، ع304، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، المملكة العربية السعودية، ص ص 12-21.
- الزياني أبو القاسم، (1991)، الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا، دار المعرفة للنشر، الرباط.
- الشافعي درويش، (2020) ، علاقة قبائل أولاد نايل بالسلطة العثمانية في الجزائر من خلال كتاب رحلة الباي محمد الكبير، في مجلة قبس للدراسات الإنسانية والاجتماعية ، مج4، العدد01، جامعة الوادي ، الجزائر، جوان، ص ص 841-859.
- العياشي عبد الله بن محمد،(2006) ، الرحلة العياشية (1661-1663) ، تحقيق وتقديم: سعيد الفاضلي وسليمان القرشي، مج1، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة.
- الغاشي مصطفى،(2015) ، الرحلة المغربية والشرق العثماني، محاولة في بناء الصورة ، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت.
- الفاسي علال،(1979) ، أبو علي اليوسي ( 1040- 1102هـ)، شخصيته ، حياته ، دراسة موجزة لأثاره، في مجلة المناهل ، السنة 06، العدد15، وزارة الشؤون الثقافية، المغرب، ص ص15-53.
- كساس صافية،(2011) ، الرحلات العلمية من وإلى المغرب العربي ودورها في تنشيط الحركة العلمية من وإلى المغرب العربي، في مجلة الممارسات اللغوية ، مج 02، العدد04، جامعة مولود معمري تيزي وزو، الجزائر، ص ص177-198.

- ماکمان محمد، (2014)، الرحلات المغربية في القرنين الحادي عشر والثاني عشر للهجرة الموافق للقرنين السابع عشر والثامن عشر للميلاد، ط1، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، المغرب.
- المحفوظي عامر، (2002)، تحفة السائل بباقة من تاريخ سيدي نايل، الليدو، الجزائر.
- المدغري عبد الكبير، (1989)، الفقيه أبو علي اليوسي نموذج من الفكر المغربي في فجر الدولة العلوية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب.
- المصعبي إبراهيم بن بحمان، (2007)، رحلة المصعبي، تحقيق و تعليق: يحيى بن بهون حاج امحمد، منشورات الجزائر عاصمة الثقافة العربية، وزارة الثقافة، الجزائر.
- المنوني محمد، (1953)، ركب الحاج المغربي، مطبعة المخزن، تطوان.
- الناصري أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد، (2011)، الرحلة الناصرية، أبو ظبي: دار السويدي.
- نواب عواطف، (2008)، كتب الرحلات في المغرب الأقصى مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين الحادي عشر والثاني عشر، دار الملك عبد العزيز، السعودية.
- اليوسي الحسن، (1982)، المحاضرات في الأدب واللغة، ج1، تحقيق: محمد حجي و أحمد الشرقاوي إقبال، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
- اليوسي محمد العياشي بن الحسن، (2018)، رحلة اليوسي (1102-1101هـ/1690-1691م)، تحقيق: أحمد الباهي، ط1، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون (بيت الحكمة)، مطبعة سوجيم، تونس.